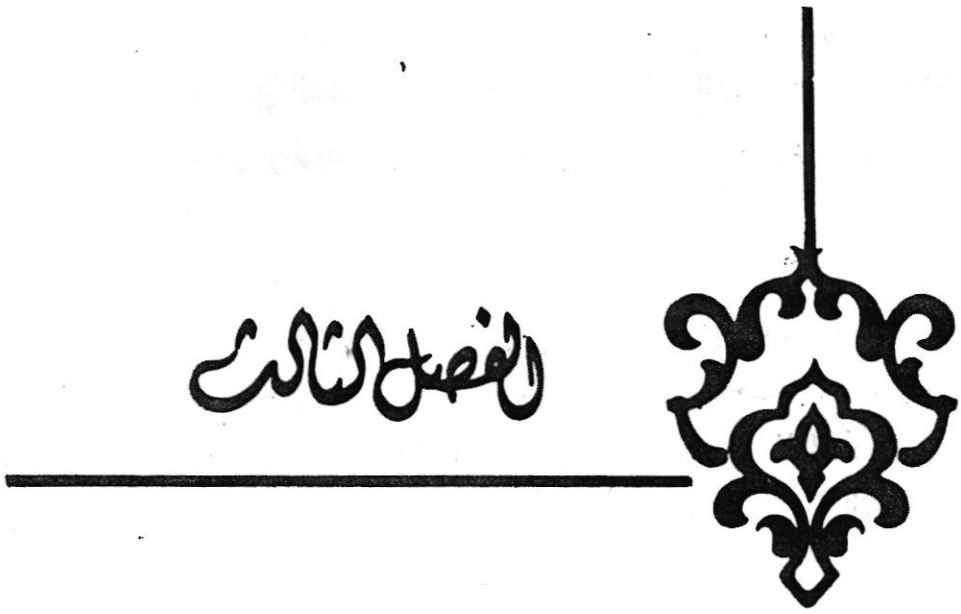

النقد في القرن الاول والثاني للهجرة

شهد النقد الادبي في اواخر القرن الاول ازدهاراً ملحوظاً سببه فيما يرى الدارسون كثرة الشعراء . وتعدد البيئات الادبية . وعودة العصبية القبلية وشيوع مجالس الادب والغناء في الحجاز خاصة والاسواق الادبية في العراق .

وعلى الرغم من ان هذه الاسباب تختلف قوة وضعفا من بيئة الى اخرى (فقد تضافرت جميعا على خلق روح جديدة في النقد . وعلى تحليل صياغة الشعر ومعانيه ورجاله تحليلا فيه عمق وفيه تنوع وفيه اختلاف في الذوق(١) والحكم

ويميز الدارسون ثلاث بيئات ادبية هي بيئة الحجاز وبيئة الشام وبيئة العراق . وقد ازدهر في كل بيئة من هذه البيئات غرض او اكثر من اغراض الشعر العربي . ففي الحجاز ازدهر شعر الغزل بنوعيه العذري والحسي . يمثل النوع الاول الشعراء العذريون ويمثل النوع الثاني عمر بن ابي ربيعة . وازدهر تبعاً لذلك نقد هذا النوع من الشعر ووضعت له اسس ومعايير . وازدهر في الشام شعر المدح بحكم وجود الخلافة فيها وكان وحده كافياً لان يستقطب البلاط الاموي الشعراء . وكان الشعر ينشد في مجالس الخلفاء والامراء ويستمع اليه وتنتقد معانيه .

---

(١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٤٦ .

وازدهر في العراق شعر الفخر وهو شكل من اشكال المدح . والهجاء . ودار النقد حول هذين الغرضين . يقول د . احمد امين موجزا الصورة التي كان عليها النقد في تلك الفترة (ولئن كان الادب في الحجاز اكبر مظهر له الغزل والنقد يتبعه ، والادب في العراق اكبر مظهر له الفخر والهجاء والنقد يتبعه . فالشام اكبر مظهر لادبه هو المديح(٢)

والحديث عن البيئات الادبية والنقدية لايعني انفصالا بينها . وانما ـ كما يقول د . طه الحاجرى ـ تمثل اطواراً من الحياة الادبية مختلفة . لكل منها شخصيته المميزة وملامحه الخاصة به . وان كنا نرى ـ بالرغم من ذلك كله ـ امراً عاماً يلفها جميعا ويطبعها بطابعه . هو تلك الشخصية العربية القوية الخالصة ... وكان لهذه الروح العامة ظواهرها المشتركة من هذه الظواهر ان الادب او الشعر خاصة كان جزءاً ظاهراً من الحياة العامة فيها ... وان الشغف بالبيان الرائع او الفن البياني كان اخد الخصائص البارزة القوية للامة العربية ... وقد كان من ذلك ايضاً سيطرة الاسلوب الجاهلي في العبارة الشعرية على هذه الفترة .. فقد كان ذلك مظهراً من مظاهر سيادة الشخصية العربية فيها(٣) .

الغزل : ـ

لقد كان شيوع الغزل في الحجاز بنوعيه اسباب فصلها مؤرخو الادب(٤) لانرى حاجة لاعادتها الا فيما نريد الاشارة اليه من كون الانصراف التام الى هذا الغرض ابعد الشعراء عن الخوض في اغراض الشعر الاخرى كالمديح والهجاء والفخر .. الخ . وجعل الشعراء ينصرفون الى تطوير هذا الفن بتأثير مجالس السمر والادب والغناء (لذا اصبحت كثرته مقطوعات قصيرة) وعدل الشعراء الى الاوزان الخفيفة مثل الرمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج والوافر . كما عدلوا الى مجزؤات الاوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز بل لقد مالوا الى تجزئة الاوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين اشعارها والحانهم وانغامهم .. وليس ذلك فقط ما اثريه الغناء في

---

(٢) النقد الادبي (القاهرة ١٩٦٣) ٤٢٩ .

(٣) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ١٤٩ .

(٤) انظر مثلاً د . طه حسين حديث الاربعاء ١/ ١٨٠ والمؤلف يرى ان الغزل في هذا العصر ثلاثة انواع ، عذري ، محقق (حسي) وتقليدي عادي ، ويريد به الغزل الذي هو استمرار لغزل العصر الجاهلي الذي يتخذ وسيلة الى غيره ويبتديء به الشاعر قصيدته .

الغزل الذي عاصره . فقد دفع الشعراء الى اصطناع الالفاظ العذبة السهلة حتى يرضوا اذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه اول دفعة نحو تصفية الشعر العربي من الفاظه البدوية الجافة(٥) .

وهذا الذي يراه شوقي صحيح الى حد ما . ولكن ليس الامر كما يترأى له . فالشاعر الغزل لم يكن ينظم على البحور القصيرة كي يلائم بين شعره والحان المغنين دائماً ولم يكن يختار اللفظ العذب لارضاء اذواق المستمعين . فما اظن الشاعر كان مهتماً كل الاهتمام بالمغنين والمستمعين . انما هي طبيعة شعر الغزل في مجتمع متمدن متحضر مترف تقتضي اللفظ الحسن والبحر القصير . وقد نمضي الى ابعد من ذلك فنقول ان هذا الغزل بمعناه ومبناه حصيلة عوامل عدة منها الاسلام ومنها العاطفة المشبوبة الصادقة ومنها الفراغ .

وبحكم سيادة الغزل توجه اهتمام النقاد الى هذا الغرض ينقدون معانيه وافكاره وصوره على وفق معايير قوامها الذوق المرهف والحس الصادق لكنها لاتخلو من تأثيرات اجتماعية .

فقد انتقد ـ مثلاً ـ عمر بن ابي ربيعة لانه لم يكن يحسن ان يتغزل . ولم يكن يحسن وصف المرأة وقيل عنه (انه لم يرق كما رق الشعراء . لانه ماشكا قط من حبيب هجرٍ ولا تألم لصد . واكثر اوصافه لنفسه وتشبيبه بها(٦) وان احبابه يجدون به اكثر مما يجد هوبهم . ويتحسرون عليه اكثر مما يتحسر هو عليهم)(٧) وعلى الرغم من ان هذه الرواية تنسب الى المفضل الضبي . الا انها في الواقع تعكس رأي معاصري عمر في شعره مثل ابن ابي عتيق الذي قال(٨) معقباً على بيتي عمر ....

بينما ينعتني ابصرنني
دون قيد الميل يعدو بي الاغر
قلنَ تعرفن الفتى ؟ قلن نعم
قد عرفناه وهل يخفى القمر

---

(٥) شوقي ضيف . العصر الاسلامي (القاهرة ١٩٦٣) ٣٤٧ ـ ٣٤٨

(٦) قد تكون تشبيبه بها

(٧) الموشح ٣٢٠ ـ ٣٢١

(٨) هو محمد بن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) وكان من اظرف الناس ومن نساك قريش . ومن ابرز نقاد الحجاز . يفهم الشعر جيداً ويحسن تذوقه

انت لم تنسب بها . وانما نسبت بنفسك(٩) وقريب من هذا قول كثير وهو شاعر غزل مثله الا انه عذري : يا اخا قريش . والله والله لقد قلت فأحسنت في كثير من شعرك ولكنك تخطيء الطريق تشبب بها ثم تدعها وتشبب بنفسك . اخبرني عن قولك ....

قالت لترب لها تحدثها
لتفسدن الطواف في عمر
قومي تصدي له ليبصرنا
ثم اغمزيه يأ أخت في خفر

اردت ان تنسب بها فنسبت بنفسك . اهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف بالخفر وانها مطلوبة ممتنعة(١٠) .

وواضح ان الموقف النقدي هنا يتمسك بصورة مثالية للمرأة قائمة خارج احساس الشاعر في حين ان الشاعر ملتزم بصورة واقعية قائمة في احساسه هو او في الواقع الذي عاشه فعلا ومن هنا لم يرتض نقاد الحجاز معاني الغزل التي تخرج عن حدود هذه الصورة المثالية وفي هذا يمكن ان نفهم نقد ابن ابي عتيق لكثير في قوله : ـ

ولست براض من خليل بنائل
قليل ولا راض له بقليل

اذ قال معلقا (هذا كلام مكافيء وليس بعاشق)(١١) لان الشاعر ساوى بين نفسه وحبيبته فارتضى لها مثل ما ارتضاه لنفسه .. كثير بكثير . وهذا موقف ـ او معنى ـ في تصور الناقد غير سليم . لان الشاعر الغزل لايطالب لنفسه بمثل مايطالب به لمحبوبته . وعمر في هذا المعنى كما يقول الناقد نفسه اصدق من كثير لانه قال :

فعدّي نائلا وان لم تنيلي
انما ينفع المحب الرجاء

---

(٩) المرشح ٣٢٠
(١٠) السابق ٢٥٧ ـ ٢٥٨
(١١) السابق ٢٣٧

وقوله :

ليت حظي كطرفة العين فيها
وكثير منها قليل مهنا(١٢)

وتأمل قول الناقد عندما وصف عمر بالصدق . وما اظنه يريد ان عمر اصدق من كثير انما اقرب تصويرا للمرأة كما ينبغي ان تكون .

وقريب من هذا ايضا مارأته امرأة في بيت كثير .

فما روضة بالحزن طيبة الثرى
يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من اردان عزة موهنا
اذا اوقدت بالمندل الرطب نارها

فقالت : فض الله فاك . ارأيت لو ان ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب اما كانت تطيب ؟ الا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

الم تر اني كلما جئت طارقا
وجدت بها طيبا وان لم تطيب(١٣)

ان شيوع هذه الصورة المثالية في مخاطبة المرأة يدل ـ كما يقول باحث معاصر ـ على اثر الترف والحضارة في الناس ورقة الاحساس الذي تغلغل في نفوس سامعي الشعر(١٤) والناقد في مثل هذا الموقف انما (يميز بين التجربة الشعرية المثالية والواقع الذي حدث او الواقع الذي يريد ان يرسمه الشاعر عن نفسه)(١٥) فيقبل الصورة الاولى ويرفض الثانية .

بمثل هذه الاراء وغيرها كان النقد الحجازي يضع لشعر الغزل اصولا لاينبغي تجاوزها . وقد وجدت هذه الاراء صدى حسنا عند ناقد متأخر هو قدامة بن جعفر

---

(١٢) المصدر السابق
(١٣) المصدر السابق ٢٣٩
(١٤) د . داود سلوم . مقالات في تاريخ النقد العربي ٥٥
(١٥) المصدر السابق ٥٤

(ت ٣٣٧) فجعلها اصلا وقاعدة للغزل . قال (فيجب ان يكون النسيب الذي يتم فيه الغرض هو ما اكثرت فيه الدلالة على التهالك في الصبابة وتظاهرت(١٦) فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة . وما كان فيه من التصابي والرقة اكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة وعلى الخشوع والذلة اكثر مما يكون فيه من الاباء والعز(١٧) .

((الموازنة المتحيزة))

وصولا الى جوار هذا كان النقد يتناول المعاني الجزئية ويتخذ من الموازنة منهجا لتقويم الشعراء ، مثل تلك الموازنة التي اجرتها السيدة سكينة بين شعر جرير ونصيب وكثير وجميل والاحرص وقد رواها المرزباني(١٨) . او تلك الموازنة التي اقامها كثير بين شعر عمر وشعر الاحوص(١٩) . او الموازنة بين شعر كثير وشعر جميل . وكون الثاني (اعشق) من الاول(٢٠) .

وقد امتدح شعر جميل لانه « مطبوع »(٢١) وعلى هذا فهو (اشعر الناس واشعر العرب(٢٢) .

كما عاب عمر شعر الاحرص لما فيه من المبالغة والاغراق(٢٣) .

لقد كان نقد المعاني ـ ومن معاييرها الصدق والابتعاد عن المبالغة والاقتراب من الصورة النموذجية المثالية في وصف النساء خاصة . وحسن مخاطبتهن ـ ملمحاً بارزاً في النقد الحجاري ملثما كان الحال في النقد الشامي . وليس هناك من فرق سوى ان النقد الشامي وجه عنايته لنقد معاني المدح لا الغزل . وهذا شيء طبيعي في بيئة ازدهر فيها شعر المدح ايما ازدهار .

---

(١٦) لعلها تضافرت

(١٧) نقد الشعر ١٢٣ ـ ١٢٤

(١٨) الموشح ٢٥٢ وما بعدها . وانظر موازنة اخرى لعل في شعر جرير والفرزدق ، ص ٢٦٣ وما بعدها .

(١٩) مختار الاغاني ٢ / ٢٣٨

(٢٠) الموشح ٣١٣ ـ ٣١٤

(٢١) العقد الفريد ٥ / ٣٩٧

(٢٢) الاغاني ٨ / ١٢٦

(٢٣) الموشح ٣٦١

المدح :

وكان من ابرز نقدة الشام عبد الملك بن مروان وبشر بن مروان ويزيد بن عبد الملك ونقدهم انصب بالطبع على معاني قصيدة المدح واصول مخاطبة الخلفاء والامراء .

ويبدو ان الشعراء الذين كانوا يفدون الى الشام مثل جرير والفرزدق وكثير وذي الرمة وغيرهم . لم يكونوا يحسنون مخاطبة هذه الفئة من الناس . فجرير مثلا يخاطب يزيد بن عبد الملك بقوله :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئت ساقكم الى قطينا

فيعلق الممدوح منكرا : اما ترون جهل جرير ؟ يقول لي ابن عمي . ويقول .. لو شئت ساقكم . اما لو قال لو شاء ساقكم لاصاب . ولعلي كنت افعل(٢٤) .

ولجرير موقف اخر شبيه بهذا امام بشر بن مروان الذي خاطبه قائلا :

قد كان حقك ان تقول لبارق
يآل بارق فيم سب جرير

فقال بشر : اما وجد ابن المراغة رسولا غيري ؟ ويعلق الصولي على هذا القول : (وليس كذا يخاطب الامراء)(٢٥)

مثل هذه الملاحظات النقدية كانت تحاول ان تضع اصلا من اصول مخاطبة علية القوم وهي نظرة تجعل الناس طبقات ومنازل . ولكل اسلوب للمخاطبة ومعان تحسن فيها ولا تحسن في غيرها . وقد فصل القول في هذا ايضا قدامة بن جعفر في الفصل الذي كتبه بعنوان (نعت المديح) وجعله اساسا وقاعدة لقصيدة المدح . فقد حدد الناس اصنافا وجعل لكل صنف معاني مخصوصة(٢٦) .

وليس من شك في ان النظرة (الطبقية) للمدح جديدة على قصيدة المدح العربية الا ان المعاني التفصيلية ليست كذلك ... فالشاعر العربي لم يكن يعرف

---

(٢٤) السابق ١٩٠ ـ ١٩١

(٢٥) الموشح ١٨٩ ـ ١٩٠

(٢٦) نقد الشعر ٧٨ وما بعدها .

الممدوح غير انه انسان تميزه من غيره صفات تجعله اهلا للمدح . او انه يجد في سلوكه وخلقه وقوله مناقب العرب في الشجاعة والمروءة والحزم ... الخ . ولم يكن يرى فيه انسانا يعلو على قومه لدرجة انه يقتضي اسلوباً خاصاً في مخاطبته . ومن ناحية اخرى لم يخرج الشاعر يومئذ كثيرا عن المألوف في رسم الصورة المقبولة للممدوح اجتماعيا . وعلى هذا مدح كثير عبد الملك بن مروان بقوله :

على ابن ابي العاصي دلاص حصينة وأجدالها
اجاد المسدي سردها واذا لها
يوؤد ضعيف القوم حمل قتيرها
ويستظلع القرم الاشم احتمالها

فقال عبد الملك موازنا بين هذين البيتين ومثلهما للاعشى في مدح قيس بن معد يكرب ومفضلا الثاني على الاول :

واذا تجيء كتيبة ملمومة
خرساء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنة
بالسيف تضرب معلما ابطالها

ورد عليه كثير بالقول (يا امير المؤمنين وصف الاعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير ووصفتك بالحزم والعزم فأرضاه)(٣٧) .

وبصرف النظر عن موقفنا من الصورتين اللتين رسمهما كل من الشاعرين الجاهلي والاسلامي للممدوحيهما فأن حجة الشاعر لاقناع الخليفة بجودة معناه كانت تمثل موقفا اجتماعيا مقبولا فالحزم والعزم صفات لابد ان تكون من ضمن ما ينبغي ان يوصف به الممدوح وخاصة رجلا في مركز عبد الملك .

وقد بقي المعيار الاخلاقي الديني الذي اسنه الاسلام لتقويم الشعر اساسا في النقد ولذلك وجدنا ان عبد الملك لم يعجبه مدح ابن قيس الرقيات له في هذا البيت .

---

(٣٧) الموشح ٢٣١

يعتدل التاج فوق مفرقه

على جبين كأنه الذهب

اذ يعلق بالقول :

تقول لمصعب بن الزبير

انما مصعب شهاب من الله

تجلت عن وجهه الظلماء

وأما لي فتقول على جبين كأنه الذهب(٢٨) وما ذلك الا لان ابن قيس الرقيات مدح مصعباً بالفضائل المعنوية بينما مدح عبد الملك بالفضائل المادية .

وقد لاحظ القدماء ذلك فقال قدامة بن جعفر مسوغاً ومعللا موقف الممدوح (فوجه عتب عبد الملك انما هو من اجل ان هذا المادح عدل عن الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة الى ما يليق باوصاف الجسم من البهاء والزينة . وقد كنا قدمنا ان ذلك غلط وعيب)(٢٩).

ومما يؤيد هذا الموقف ويعضده ماروى عنه انه قال مرة مخاطباً الشعراء (يامعشر الشعراء تشبهوننا مرة بالاسد الابخر ومرة بالجمل الاوعر ومرة بالبحر الاجاج .. الا قلتم فينا كما قال ايمن بن خريم في بنى هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم

وليلكم صلاة واقتراء(٣٠)

وقد طغت في العراق شخصيات ثلاثة من الشعراء على الشعر . فدار النقد حولهم على حين ان النقد في الحجاز والشام كان يدور حول اغراض شعرية وليس عن شعراء . اما هؤلاء الشعراء فهم الفرزدق وجرير والاخطل . وقد حفلت كتب الادب والنقد والشعر باخبارهم ، وما كان بينهم من منافشة ومناقضات وما تولد عن ذلك من فن جديد هو (النقائض) .

---

(٢٨) السابق ٢٩٤

(٢٩) نقد الشعر ١٨٥

(٣٠) الاغاني ٢٠ / ٣١٠ والاقتراء بمعنى القراءة

وكانت الموازنة بين هؤلاء في المعاني والاغراض ابرز ما كان يدور حول النقد آنذاك على الرغم من ان المفاضلة بينهم ـ كما يرى باحث معاصر ـ لم تكن تعني بتحليل النصوص الشعرية ولا توازن بينهم فنياً ، او تكشف عن خصائصهم الشعرية او عيبهم في النظم . وهي لاتفيد النقد الادبي في شيء ففيها خلط كثير بين شعر الشاعر ومنزلته الاجتماعية او منزلة قومة الاجتماعية وهذا يفرض خلطاً في معايير ليست من النقد في شيء(٣١) .

وليست المسألة على هذا النحو تماماً . صحيح ان التعصب القبلي لعب دوراً في المفاضلة بينهم . لكن المفاضلة لم تقم على هذا الاساس وحده. يروى ابن سلام عن بشار العقيلي انه قال : (لم يكن الاخطل مثلهما ـ اي جرير والفرزذق ـ ولكن ربيعة تعصبت له وافرطت فيه(٣٢). وفي رواية اخرى (والله كان الاخطل مثل جرير والفرزدق ولكنهما كانا من مضر فكرهت ربيعة الا يكون منها مثلهما . فتعصبت له ورفعت منه(٣٣) .

ومع ذلك فقد شغل هؤلاء الثلاثة الناس في عصرهم ، شغلوهم شعراً وعصبية ومناقضات .. لدرجة ان الناس احسوا ان الثلاثة« طبقة » لايجاريهم ولا يقاربهم احد من معاصريهم(٣٤) وكانت تلك الفكرة نواة نظرية الطبقات التي كتب فيها ابن سلام كتابه المشهور (طبقات فحول الشعراء) .

وقد مضى نقاد ذلك العصر الى ابعد من الموازنة بين هؤلاء الثلاثة فقد ادت فكرة كون هؤلاء طبقة اولى متميزة الى ان يجدوا من يماثلهم من الجاهليين ، فقرنوا بينهم وبين الجاهليين الاعشى والنابغة وزهير(٣٥)

وبذلك كان النقد يضع موضع التطبيق مصطلحاً نقدياً هو (الطبقة) ويشرع منهجاً نقدياً مهماً هو الموازنة .. ومثلما وجدنا عند ابن اسلام تطبيقاً واسعاً لمفهوم الطبقات ، وجدنا عند الامدى تطبيقاً لمنهج الموازنة الذي طبق على شاعرين عباسيين كبيرين هما ابو تمام والبحتري .

---

(٣١) د . عبد الجبار المطلبي ، الشعراء نقاداً بغداد ١٩٨٦ ـ ٤١

(٣٢) الموشح ١٨٣ ـ ١٨٤

(٣٣) السابق ٢٢١

(٣٤) تاريخ النقد الادبي عند العرب (القاهرة ١٩٣٧) ٤٥

(٣٥) طبقات الشعراء ١٩

ومن المهم الاشارة الى ان تقويم هؤلاء الشعراء وغيرهم لم يكن ليتم بمعزل عن معايير مستجدة بعضها فني وبعضها لغوي وبعضها الثالث ليس من اللغة والفن في شيء ، كالعصبية القبلية التي فضلت الاخطل على صاحبه كما مر بنا .

فاما النقد اللغوي فقد ظهرت بوادره في اواخر القرن الاول للهجرة وكان يعالج ـ فيما يعالج ـ دلالات الالفاظ وصحة التراكيب وضعفها .... ويلفت النظر الى بعض المأخذ النحوية التي يحدها الناقد عند هذا الشاعر او ذلك . ثم تطور النقد اللغوي كثيراً وتوسع على ايدي الرواة . صار اتجاهاً متميزاً وباباً واسعاً من ابواب نقد الشعر في القرن الثاني للهجرة .

واما النقد الفني فنريد به النقد الذي يقصد تقويم الشعر بصفته شعراً فتكون معاييره ذات صلة بالشعر معنى وصياغة وصورة وغرضا واحساسا وتجربة ومذهبا في القول . وفي ضوء هذه الاعتبارات قيل عن جرير انه يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق(٣٦) .

وفي معرض الموازنة بينهم قيل عن جرير ايضاً انه كان يجيء سابقاً (اي الاول بين اقرانه) وتارة سكيتا (اي الاخير) وتارة ثالثة مصليا (اي الثاني) لان له روائع وهو بهن سابق ، واوساط هو بهن مصل (ثان) وسفسافات هو بهن سكيت (اي اخر) . اما الفرزدق فلا يجيء سابقاً ولا سكيتا وانما هو مصل لان الفرزدق دون الاخطل في ست او سبع من روائعه ، وفوقه في بقية شعره . اما الاخطل فهو سكيت (اخر اقرانه) لان سائر شعره دون اشعارهما(٣٧) .

وهذا التقويم الدقيق قائم على الموازنة الشاملة لاشعارهم الامر الذي يدل على ان النقد لم يعد احكاما تتسم بالعمومية ، او تستند الى تقويم بيت واحد اوبيتين دون سائر القصيدة ، او قصيدة او اثنتين دون سائر الشعر .

كان المدح والهجاء والفخر ابرز مالفت انظار النقاد في شعر هؤلاء الشعراء ولا يعني هذا ان شعراء هذا العصر اشاحوا بوجوههم عن اغراض الشعر الاخرى . لقد كان القول في هذه الاغراض الاساسية معيار الشاعرية والفحولة . وعلى وفق هذا لم يكن ذو الرمة فحلا لانه لم يكن يحسن غير التشبيه . تقول الرواية (اجمع العلماء

---

(٣٦) الموشح ١٨٤

(٣٧) السابق ١٨٣

بالشعر على ان الشعر وضع على اربعة اركان مدح رافع او هجاء واضع او تشبيه مصيب او فخر سامق . وهذا كله مجموع في جرير والفرزدق والاخطل . فاما ذو الرمة فما احسن قط ان يمدح ولا احسن ان يهجو ولا احسن ان يفخر . يقع في كل هذا دونا . وانما يحسن التشبيه فهو ربع شاعر)(٣٨) .

وفي رواية اخرى سأل ذو الرمة الفرزدق مالي لا الحق بكم معاشر الفحول ؟ فقال لتجافيك عن المدح والهجاء واقتصارك على الرسوم والديار(٣٩) .

ويعقب الاستاذ طه احمد ابراهيم على هذا بالقول (ان ذا الرمة كان يسرف في الوقوف على الديار ووصف الناقة والسفر والمفارز . حتى اذا فرغ من ذلك كله فترت نفسه فلم تبق فيها بقية صالحة للمديح . ولم تكن تلك الطريقة موفقة لا من الوجهة الاجتماعية ولا من الوجهة النفسية في العصر الاسلامي .. هذا الى طابع شعره الوحشي والى حرصه على الغريب(٤٠) .

ولا يكفي هذا التفسير لقعود ذي الرمة عن اللحاق بالفحول انما الصحيح ان نقاد ذلك العصر كانوا يريدون في القول في اغراض الشعر الاساسية برهاناً على قدرة الشاعر على القول (في كل عروض وركوب قافية(٤١) كما يقول الاصمعي في رسالته (فحول الشعراء) . كما لا ينبغي الاستهانة بما للمدح والهجاء من قيمة اجتماعية تجعل للناظم في هذين الغرضين منزلة بين شعراء عصره من ذاك الذي يكتفي بالغزل او الوصف مثل (وكان جرير يعتبر الهجاء هو الفن الشعري الذي يرجو ان يحظى بالشهادة فيه اذ كان هو الفن الذي يلائم تلك الحياة)(٤٢) .

ومع ان هؤلاء الشعراء كانوا طبقة واحدة الا انهم متفاوتون في اجادتهم لاغراض الشعر المختلفة . وها هو الاخطل يقول (انا امدحهم للملوك وانعتهم للخمر والحمر يعني النساء . واما جرير فأنسبنا واشبهنا . واما الفرزدق فأفخرنا(٤٣) .

---

(٣٨) السابق ٢٧٣

(٣٩) السابق ٢٧٤

(٤٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٤٢

(٤١) ص ١٢

(٤٢) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ٩٩

(٤٣) الشعر والشعراء ٣٧٧

وعلى صعيد البناء الشعري لاحظ النقد صلابة شعر الفرزدق . ورقة شعر جرير فقالوا (ان الفرزدق ينحت في صخر ، وان جرير يغرف من بحر)(٤٤) وكأن هذا الموقف النقدي صدى لما كان الفرزدق يقوله عن شعره وشعر جرير (ما احوجه مع عفته الى صلابة شعري وما احوجني الى رقة شعره(٤٥) فالفرزدق هنا يفسر بقوله (صلابة شعري) مايراه الجمهور في شعره الذي هو اشبه بالنحت في الصخر . ومن قوله (رقة شعره) قول النقاد انه يغرف من بحر مع اننا لاندري اي الحكمين اسبق من الاخر . ولكن اي حكم منهما ان هو الا صدى للاخر يفسره ويعضده .

وفضلاً عما اشرنا اليه في الصفحات السابقة لم يكن نقد القرن الاول للهجرة يخلو من رواسب النقد الذي رأينا صوراً منه فيما سبق من فصول فهو انطباعي تأثري وقد يكون السبب هو ان النقد لم يعتمد بعد منهجاً واضحاً . وكان النقاد ـ ونقولها تجوزا ـ لم يكونوا اكثر من متذوقين للشعر ينساقون ـ احياناً وراء اعجاب او استهجان وقتيين . او وراء

عني المتقدمون باللغة للوقوف على اسرار الاعجاز القرآني . يقول السيوطي في المزهر (ان علم اللغة من الدين ... وبه تعرف معاني الفاظ القرآن والسنة)(٤٦) .

وكان من ثمرات الاهتمام بالاعجاز العودة الى التراث القديم وجمعه ونقد وتدوينه لاعتماده شاهداً ومثلاً على تفسير القرآن وفهم معانيه . وقد قال الجاحظ (مدار العلم على الشاهد والمثل)(٤٧) . والعلم المشار اليه في هذا القول اي علم .. منها علوم القرآن والحديث واللغة والنحو . فالدليل على صحة معنى او استقامة لفظ او سلامة تركيب هو الشاهد الشعري . وهذا منهج في البحث انفرد به العرب فيما نعلم . وكان عبد الله بن عباس يقول (اذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه في اشعار العرب . فأن الشعر ديوان العرب . وكان اذا سئل عن شيء من القرآن انشد شعراً)(٤٨) .

ومن هنا بدأت عملية تدوين التراث الشعري . مع مايستتبع هذا من جمع الاخبار والاحداث والايام وتراجم الشعراء .. الخ . وقد نهض لهذا العمل الضخم علماء

---

(٤٤) طبقات فحول الشعراء ٤٠٨

(٤٥) الشعر والشعراء ٣٧٧

(٤٦) ٢ / ٣٠٢

(٤٧) البيان والتبيين ١ / ١٠٥

(٤٨) ابن رشيق القيرواني ، العمدة ١ / ٧١

البصرة خاصة الكوفة ايضا . منهم ابو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤) وحماد الراوية (ت ١٥٦) ، والمفضل الضبي (ت ١٦٨) وخلف الاحمر (ت ١٨٠) ويونس بن حبيب (ت ١٨٢) وابو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠) وابو زيد الانصاري (ت ٢١٥) وعبد الملك بن قريب الاصمعي (ت ٢١٦) وغيرهم كثير(٤٩)

وقد اسهم هؤلاء بحكم نشاطهم في التدوين والرواية واللغة في نقد الشعر وتقويمه على تفاوت في درجات الاهتمام بهذا الجانب او ذاك ويبدو ان ابا عمرو بن العلاء انطباعات مخزونة عن هذا الشاعر او ذاك . فقد بقيت بعض الاحكام السريعة تتردد على السنة النقاد . وقد سئل الفرزدق عن شعر نصيب فقال (هو اشعر اهل جلدته)(٥٠) . وكان نصيب اسود . ومثل هذا رأى **الأحوص** في كون الفرزدق اشعر من جرير(٥١) . اما كثير فيرى آن جميل بثينة اشعر العرب حيث يقول : ـ

وخبرتماني ان تيماء منزل
ليلى اذا ما الضيف القى المراسيا

وبعد برهة سمعه الناس وهو يردد : هو والله اشعر الناس حيث يقول :

وأنت التي ان شئت كدرت عيشتي
وان شئت ـ بعد الله ـ انعمت باليا(٥٢)

نقد الرواة واللغويين

لم يغد النقد في القرن الثاني للهجرة على حاله التي كان عليها في السابق . فقد تنوعت اتجاهاته . وتشعبت اهتماماته وتعمقت نظراته بعض الشيء . واذا كان نقاد القرن الاول ادباء ومتذوقي شعر ، فأن نقاد القرن الثاني علماء ترفدهم ثقافة لغوية وادبية وتاريخية واسعة . وصار النقد (علما) و (صناعة) كما يقول بعدئذ ابن سلام . ولان العلم بالشعر ليس سهلا . والقول فيه يقتضي معرفة وذوقاً دقيقاً يمكن صاحبه من تمييز الغث من السمين صار العلماء بالشعر (اعز من الكبريت الاحمر)

---

(٤٩) تواريخ وفيات هؤلاء الاعلام تقريبية
(٥٠) الزجاجي ، الامالي ، ٤٨
(٥١) الاغاني ٢ / ٢٠١
(٥٢) الاغاني ٨ / ١٢٦